الى ما وراء هذا العالم . ومن المكان الجديد يبعث أبو النحس برسائله للراوي كشفا للكثير من الوقائع التي اكتنفت اختفاءه . وكان اميل حبيبي يضيف عاملا جديدا لتأكيد مزاوجته بين التقليد والمعاصرة في روايته .

— ٣ —

ولعل في الاستقصاء السابق للاركان الروائية في كتاب « المتشائل » ما يثبت ان اميل حبيبي هو كاتب روائي في المقام الاول . وان كتابه هذا يشتمل على الركائز الضرورية للمعمار الروائي طبقا لما هو معروف في ميدان الابداع الروائي ، والنقد الروائي . ولكن السؤال الذي يحتاج الى اجابة شافية ومقنعة هو : ما الذي تحظى به رواية المتشائل من قيمة ؟. وهل هي مجرد اضافة كمية الى الرواية العربية والفلسطينية ام انها اضافة نوعية تخطو بهذا الفن خطوة الى الامام ؟. وما هي العناصر المميزة لهذه الرواية ، وهل هناك مقاصد عبر عنها الكاتب لم يسبقه احد اليها ؟ ما هو مستقبل هذه الرواية في مجالات التقويم التاريخي والنقدي ؟.

ترد هذه الرواية على مسامع القراء مجموعة من الرسائل تلقاها الراوي الملقب « بالمحترم » من سعيد ابي النحس المتشائل بطل الرواية ، يعرفه فيها بالاسرار الغريبة التي جعلته يدرك واقعه في الحياة ، وانه منذ ادراكه لهذا الواقع وهو جالس على خازوق يتمنى من ينقذه ، فيتاح له احد رجال الفضاء ، فيأخذه ويطير به نحو الفضاء . اما الذي جعل سعيد نموذجا للتعاسة والنحس فهو انه استند على وصية ابيه الذي قتل اثناء نزوح ١٩٤٨ في تصريف أمره للبقاء في الارض المحتلة . واعتماده على اظهار الولاء والاخلاص لدولة الاحتلال . وعمله في التشويش على الاحزاب الوطنية لصالح حزب المباي الاسرائيلي في الانتخابات . ومواقفه التي تعد نموذجا للانهزامية ، والسلبية ، واخيرا موقفه من احتلال عام ١٩٦٧ .

ورغم ان أبا النحس يبذل جهده في اظهار الولاء للعدو .. فان هذا العدو لا يترك له فرصة أن يحيا على هواه ، بل يزج به في السجن غير مرة . ولقد صور اميل حبيبي بطله المهزوم بصورة ساخرة، ينتقد فيها طبقة من المتعاونين مع الاحتلال .

ويعرض بين يدي القارىء صورة وافية ، دقيقة التفاصيل ، محددة المعالم ، بارزة الخطوط والالوان ... لتطور حياة الاقلية العربية في فلسطين المحتلة ، بدءا من عام ١٩٤٨ — ١٩٧٤ .

ويسلط الاضواء على نضال الفئة الوطنية منهم، ذاكرا بعض الاحداث والوقائع بالتحديد . كما يصور انعكاس حرب ١٩٦٧ عليهم ، ويصور الظروف الجديدة بعد الاحتلال . وبروز المقاومة من ليل الاضطهاد ، بشكل اصعب على التصديق من الموت على الاحياء ، كما يقول أبو النحس .

ويأخذ الكاتب بيد القارىء في جولات عبر فلسطين من اقصاها الى اقصاها ، عارفا بكل تفاصيلها الجغرافية والبشرية والنباتية ، ملما بلغة شعبها على اختلاف لهجاته وعاداته الطبقية الفلاحية والعمالية . ويمر به عبر دياميس عكا ، والسهل الساحلي ، وعبر سجن شطة ، والعفولة ، وسجن الرملة ، ونابلس . ويتنقل به عبر مسافات زمنية لا تحدها تخوم ، ولا تفصل بينها حواجز . ويطرح افكارا سياسية تفضح الديمقراطية المزيفة في « اسرائيل » . وتكشف عن وجود صراع ايديولوجي وعملي بين الاحزاب العربية والاسرائيلية هناك . وينتقد الامراء ، والحكام ، الذين جروا على بلدانهم نكسة مثل نكسة حزيران . كما ينتقد الانهزاميين ، والسلبيين ، والمتخاذلين . ويطرح — بعد ان ينتهي من حملته التهكمية — البديل عنهم بطريقة رمزية شفافة ، وكأنها نهاية قصيدة « عندما تذهب هذه الغيمة تشرق الشمس » . والمقصود بالغيمة — هنا — أبو النحس . رمز الانهزامية ، والتخاذل المطلق ، وهو لا يمثل شخصيته ، انما يمثل الاف الاشخاص الموجودين بيننا .

في آخر سطر من الرواية يقول الكاتب على لسان الراوي : « فكيف ستعثرون عليه ، يا سادة يا كرام ، دون ان تتعثروا به ؟ » . فهو يقول لنا : لا تبحثوا عنه بعيدا . فهو بينكم ، تتعثرون به كلما تحركتم ، وكلما زايلتم مواقعكم .

والرواية التي تقول كل هذا ، دفعة واحدة ، لا شك انها رواية عظيمة من حيث المضمون ، ومن حيث الافكار . فهل كانت على هذا المستوى من حيث اصالة البنيان ، وقوة المعمار الفني .؟.